﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ [النّور: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هداية مخلوقات الله تعالى إلى تسبيحه وتنزيهه تستدعي النّظر والاعتبار

لمّا بيّنت الآياتُ السّابقةُ أنّه ﷻ مُنَوِّرُ السّماوات والأرض وواهبُ الهدايةِ لخَلْقه؛ فمنهم مَنِ انتفع بنوره واهتدى بهديه، ومنهم مَن ضَلّ وتراكمت عليه الظّلمات ولم يهتدِ لنور الله؛ جاءت هذه الآيةُ بالدّعوة إلى النّظر والاعتبار في هداية الله تعالى إلى كثيرٍ من أهل السّماواتِ والأرضِ الذين نَزَّهوا اللهَ عن كلّ نقصٍ، وبما ألهم الطّيرَ إلى تسبيحه؛ فكانت أصواتُها دلائلَ حالٍ على تسبيحِ اللهِ وتنزيهِه عنِ الشّركِ بلسانِ الحالِ[1].

ومنها: لمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى مَثَلَ المؤمنِ والكافرِ، وأنَّ الإيمانَ والضَّلال أمرُهما راجعٌ إليه؛ أعقبَ بذِكْرِ الدَّلائلِ على قُدرته وتوحيدِه[2].

ومنها: أنَّه تعالى لمّا وصف نورَه في الآيات السّابقة، وذَكَر مِن اهتدى به وما أُعِدّ لهم مِنَ الثّواب، وبَيَّنَ حال مَن لم يُرزق ذلك النّور؛ ذَكَر في هذه الآية ما يُفْضي إلى تحصيل ذلك النّور ويدلُّ على التّوحيد الذي هو بَدْرُ البُدور فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ الآية[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَبِّحُ﴾: (سبح) أصلٌ يدلُّ على جِنْسٍ مِنَ العِبادَةِ؛ وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ؛ أيْ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 258.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 55.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 404.

أَبْعَدْتُ فيها[1]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحْتُ لَهُ أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا؛ أيْ: نَزَّهْتَهُ وبَرَّأْتَهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[2]، ويأْتي التّسبيح بِمعنى قَوْلِ: سُبْحانَ اللّه، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ؛ أيْ: قال: سُبْحانَ اللّه، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بِالعِبادَةِ[3]، والمُراد بالتَّسبيحِ في الآيةِ: قَولٌ، أَو مجموعُ قَولٍ مع عَمَلٍ، يدُلُّ على تَعظيمِ اللّه تعالى وتَنزيهِهِ.

2) ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾: (صفَّ) أصلٌ يدلُّ على أصلٍ واحدٍ؛ وهو استواءٌ في الشَّيءِ وتَساوٍ بَيْنَ شيئَيْنِ في المَقَرِّ، مِنْ ذلكَ الصَّفُّ[4]؛ وهو السَّطْرُ المُسْتَوي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وجَمعُهُ: صُفوفٌ[5]، يُقالُ: وقَفا صَفًّا؛ إذا وقَفَ كلُّ واحدٍ إلى جَنْبِ صاحِبِه، واصطفَّ القَوْمُ وتَصافّوا، والأَصلُ في ذلكَ الصَّفْصَفُ، وهو المُستَوي مِنَ الأَرض[6]، والطَّيْرُ الصَّوافُّ: التي تَصُفُّ أجنحتَها فلا تُحَرِّكُها[7]، والمُراد من ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ في الآية؛ أيْ: باسطاتٍ أجنحتَهُنَّ في الهواء حين الطَّيرانِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـكـونُ كـلُّـهُ يُسبّحُ خالِقَه

معنى قوله ﷻ في هذه الآية: ألم ترَ أنَّ اللّهَ يُسَبِّحُه وينزِّهُه عن النَّقائِصِ كُلُّ مَن في السَّماواتِ وكُلُّ مَن في الأرضِ مِنَ الملائكةِ والنّاسِ والجِنِّ والحيواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ، والطَّيرُ باسِطاتٍ أجنِحَتَها في السَّماءِ حالَ الطَّيرانِ تُسَبِّحُ رَبَّها، وكُلُّ مَخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه للّه تعالى، واللّهُ ذو عِلمٍ بما يفعَلُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح)، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(3) ابن سيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح)، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 96.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صفف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صف).
(7) الخليل، العين، وابن دُريد، جمهرة اللّغة: (صف)، و(صفف).

كُلٌّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، وهو مُجازيهم على ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ عمّا سبقه؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ، أعقبَ تمثيلَ القرآنِ لأهل الضَّلالة، وكيف حرمهمُ اللّهُ الهُدى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ بِطَلَبِ النَّظرِ والاعتبار، كيفَ هدى اللّهُ تعالى كثيرًا من أهل السَّماوات والأرض إلى تنزيهِه المُقتضي الإيمانَ به وحْدَه، وبما ألهمَ الطَّيرَ إلى أصواتها المُعْرِبَة عن بهجتها بنِعْمَة وجودِها ورِزْقِها النّاشِئَيْن عن إمداد اللّهِ إيّاها بهما؛ فكانت أصواتُها دلائلَ حالٍ على تسبيح اللّه وتنزيهه عنِ الشَّريك[2].

طَلَبُ النَّظرِ والاعتبار بمَن رُزِق الهداية بعد ذِكْرِ مَنْ حُرِمَها

وقيل: هو استئنافٌ خوطِب بهِ النَّبيُّ ﷺ، وإن أُريدَ به كلّ المُكَلّفين؛ وذلك للإيذان بأنّه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتبِ النّور وأجلاها، وبَيَّن له مِن أسرار المُلك والمَلكوت أدقَّها وأخفاها؛ والمعنى: قد علمتَ - أيُّها الرَّسول - عِلْمًا يقينيًّا شبيهًا بالمُشاهدة في القوَّة والرَّصانة بالوحي الصَّريح والاستدلال الصَّحيح[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للاستفهام، وهو هنا للتَّقرير، وغرضُه: إثارةُ الذِّهن، والتشويق لما يَرِدُ بعدَه منَ الكلام، وإيقاظ الانتباه والحِسّ عند فريقٍ منَ المشركين الذين لهم عقولٌ؛ لذلك جاء

تقريرُ تنزيهِ اللهِ وتقديسِه، وبيانُ انقيادِ كلِّ الكائناتِ لربِّها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 334، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 72، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 570.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 257.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182.

النَّظمُ الكريم بأسلوبٍ فيه استفهامٌ تقريريٌّ؛ للإشارة إلى أنّ تسبيح الكائنات وانقيادها له سُبحانه، واضحٌ إلى حَدٍّ أن يُرَى ويُعْلَم عِلْمًا لا شكَّ فيه بأنَّ هذا الكونَ كُلَّه بما فيه من سماءٍ وأرضٍ وفضاءٍ وكُلِّ شيءٍ؛ يدلُّ دلالةً قويَّةً على تنزيهِ الحَقِّ ﷻ، ويَشْهَدُ على ذلك بلسان الحال والمقال، ويَحتمِل أن يكون هذا الاستفهامُ مُستعملًا كنايةً عنِ التّعجيب من حال فريق المُشركين الذين هم من أصحاب العقول، ومع ذلك قد حُرِموا الهُدى لما لم يجعلْه اللّهُ فيهم، وقد جعل الهُدى في العجماوات؛ إذ جَبَلَها على إدراك أثرِ نعمة الوجود والرّزق[1].

دلالةُ الخِطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

الخطابُ للنَّبيِّ ابتداءً ولأُمَّته مِن بعدِه

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنَّبيّ ﷺ، وإن أُريدَ بهِ العموم؛ فيَعُمّ كُلَّ مخاطَبٍ كما هو الشَّأن في أمثاله[2]؛ للإيذان بأنّه تعالى قد أفاض على نبيّه ﷺ أعلى مراتبِ النّور وأجلاها، وبيّن له من أسرار المُلك والمَلكوت أجلاها وأخفاها[3]، والظّاهر في الأسلوب العموم؛ والمعنى: أَلَم تَرَ أيُّها المُخاطَبُ[4]؛ لأنَّ هذا الكلامَ جرى مجرى المَثَلِ في التَّعجيبِ أيضًا[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

تنزيلُ المعلومِ منزلةَ المشهودِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالرُّؤية دونَ العِلْم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾؛ للدّلالة على أنّ علمَه ﷻ ويقينَه بحال الكائنات في تسبيحها قد وصل إلى منتهاه، ويُؤكّد هذا المعنى ما قاله أبو السّعود: "قد علمتَ علمًا يقينيًّا شبيهًا بالمشاهدة في القوّة والرّصانة، وجاء علمُك عن طريق الوحي الصّريح والاستدلال الصّحيح"[6]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 258.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 182.
(4) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 284.
(5) بهجة صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 63.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 182.

وعلى هذا: تكون الرّؤية علميَّةً؛ والمعنى: ألم تعلم سواء كان علمُكَ عن طريق المُشاهدة بالبصر، أو عن طريق السَّمع بالأذن، أو عن طريق الاستنتاج بالعقل والتَّفكير، وهذه الثَّلاثةُ هي طُرُق العِلْم كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36]، فـ (ألم تعلم) عِلْمًا ناتجًا عن هذه الأمور الثَّلاثة، أو عن واحدٍ منها، لأنَّ قولَه بعد ذلك: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يشمل الملائكةَ، وتسبيحُ الملائكة نحن لم نعلمه عن طريق الرُّؤية، ولكن عن طريق الوحي الذي هو السَّمع، فقد جاء عن نبيّنا ﷺ أنّ الملائكة تُسَبِّح الله، وسمعنا قولَ الله ﷻ أنَّ الملائكة تُسَبِّح[1]؛ فالرُّؤيةُ في هذه الآية بمعنى العِلْم، والظّاهر أنَّ إطلاقها عليه حقيقة، وقيل: هي حقيقةٌ في الأبصار، وإطلاقُها على العِلْم استعارةٌ أو مَجازٌ لعلاقة اللُّزوم.

وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بالرّؤية: الدّلالةُ على وضوح أمر التّسبيح إلى حَدٍّ أنّه يُرَى ويُعْلَم عِلْمًا واضحًا يُدْرِكه كلُّ قلبٍ أشرق بالنّور الإلهيِّ، وانتفع بالمعارف الرّبانيّةِ.

ويجوز أن تكون الرُّؤية هُنا بصريَّةً؛ لأنَّ تسبيح العُقلاء مُشاهَدٌ لكلّ ذي بَصَرٍ، وتسبيح الطَّير مُشاهَدٌ باعتبار مُسمّاه، فما على النّاظر إلّا أنْ يَعْلَم أنَّ ذلك المُسمَّى جديرٌ باسم التَّسبيح، وعلى هذا الاعتبار كان الاستفهامُ الإنكاريّ مَكينَ الوَقْعِ[2]، وكونها علميّةً أَوْلى.

سِرُّ التّعبيرِ بالرّؤيةِ بدلًا منَ السّماعِ:

الـعـيـنُ أقـوى الحواسِّ وسيِّدةُ الأدلةِ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالرّؤية دونَ السّماع في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أنّ التّسبيح – ولا سيما تسبيح المقال – يناسبُه السّماعُ؛ لأنّه لمّا كانتِ العينُ هي أقوى الحواسّ وسيِّدةَ الأدلّة – كما يُقال: (ليس مع العين

(1) ابن عُثيْمين، تفسير سورة النّور، ص: 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 258، 259.

أين) - عبّر بها؛ لأنّها لا تحتاج إلى دليلٍ، بخلاف السّماع فيَحتاج إلى ما يُصَدّقُه، ولذلك يُقال: (ليس مَن رأى كمَن سَمِعَ)، ولمّا كان المقامُ هنا يتعلّق بأمر تسبيح الكون، وهذا أمرٌ ظاهرٌ للعيان، سواءٌ كان منَ المُكلّفين أو كان من غيرهم بما يدلُّ عليه حالُهم - عبّر بالرّؤية؛ بخلاف السّماع فإنّه يكون مقصورًا على تسبيح المقال، وهذا غير مُرادٍ.

دلالةُ التّعبير بالاسمِ الجليلِ:

لتَضمُّنِه لكلّ صفاتِ الجمالِ والكمالِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالجلالة في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّه المُتضمِّن لكلّ صفاتِ الجمال، والحائِزُ لكلّ صفات الكمال[1]، وهو المناسبُ للتّسبيح الذي يقوم به أهلُ السّماوات والأرض منَ العقلاء وغيرهم[2]؛ فهم يُنزِّهونه على الدّوام في ذاته وصفاته وأفعاله عن كلّ ما لا يليق بشأنه من نقصٍ وآفةٍ.

بلاغةُ التّوكيد بـ ﴿أَنَّ﴾ والجُملةِ الاسميَّةِ:

في التّأكيد بـ ﴿أَنَّ﴾ واسميَّة الجُملة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ تأكيدٌ لوقوع التّسبيح، وأنّه حاصلٌ من هذه المخلوقات المذكورة حالًا ومقالًا.

سِرُّ انتخابِ التّسبيحِ دونَ غيرِه منَ الذِّكْرِ:

تقبيح حالِ الكَفَرة في إخلالهم بالتّنزيه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالتّسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى وتقديسُه، وإثباتُ ما يليق بجلالِهِ من صفات الكمال[3]؛ لما أنّ سياق الكلام لتقبيح حالِ الكَفَرة في إخلالهم بالتّنزيه، وذلك بجَعْلِهم الجمادات شُركاءَ له في الأُلوهيَّة، ونسبتِهم إيّاهُ إلى اتّخاذ الولد، تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[4]؛ ولأنّ التّسبيح هو القضيّة الأولى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 288.
(2) حقّي، روح البيان: 6/ 163.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 135.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182.

التي ذكرتها الملائكة في قولهم لله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]؛ فجاء التّعبيرُ بالتّسبيح في هذه الآية؛ ليُبيِّن أنّ أمر التّسبيح ليس مقصورًا عليهم؛ بل الكونُ كلُّه يُسَبّح لله ربِّ العالَمين.

سِرُّ التَّعبير بالمُضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾:

تَجَدُّدُ التَّسبيحِ من هذه المخلوقاتِ واستمرارُه

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ مع أنّه ورد بالماضي أيضًا في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: 1] [الصف: 1]، وقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 1]، وبالأمر في نحو قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: 1]، وكلّ هذه الصّيغ تدلّ على أنّ كلّ تلك الأجناس مُسَبّحة لله في كلّ الأوقات؛ لكنّه آثَرَ في هذه الآية التّعبيرَ بالمضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ الذي يدلُّ على تَجدُّد التّسبيح لله ﷻ في ذاته وصفاته وأفعاله؛ فهم يُجدّدونه في كلّ وقتٍ، ولا يفترون عنه أبدًا.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

الاعتناءُ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقُ على المُؤخَّرِ

جيء بشِبْهِ الجُملةِ ﴿لَهُۥ﴾ مُقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للاعتناء بالمُقدَّم؛ وهو كون التَّسبيح له خاصًّا به ﷻ لا يُصْرَف لغيره، وكذلك للتَّشويقِ إلى المُؤخَّر؛ وهو ذِكْر المخلوقاتِ العظيمة المُسبِّحة بقُدسِه ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تغليبُ العُقلاءِ جريًا على عادةِ الخطابِ القرآنيِّ، ولأنَّهم أعلى مكانةً

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما) مع أنَّ فيها ما لا يعقل؛ لأنَّها كلُّها في دلالتها على التَّسبيح أُقيمت مقامَ العاقل؛ ولمّا كان فيها عُقلاء وغيرُ عقلاء؛ فقد غلَّب في البيان العقلاءَ؛ لأنّ التّسبيح أظهر للعُقلاء من غيرهم، ولأنَّهم أعلى

مكانةً من غيرهم، كالملائكة فإنَّهم أعلى من غيرهم، ومثل ذلك عقلاءُ الإنس والجنِّ المَهديّون، وغيرهم[1].

وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بها؛ الدّلالةُ على كمال دلالة المخلوقات عليه سُبحانه وغاية وضوحها؛ حيث عبَّر عنها بما يخصُّ العُقلاء منَ التَّسبيح الذي هو أقوى مراتب التَّنزيه وأظهرها؛ تنزيلًا للسان الحال منزلةَ لسانِ المقال - وذلك على قول في التّفسير - فأكّد ذلك بإيثار كلمة ﴿مَن﴾ على (ما)؛ كأنّ كلّ شيءٍ ممّا عَزَّ وهان، وكُلّ فردٍ من أفراد الأعراض والأعيان - عاقلٌ ناطقٌ، ومُخبرٌ صادقٌ بعُلوِّ شأنِه تعالى وعِزَّة سُلطانه[2].

سِرُّ تخصيصِ التّسبيحِ بالعقلاءِ:

خِلْقَةُ العقلاءِ أشَدُّ دلالةً على وجودِ الصّانعِ

وجهُ تخصيص التّسبيح في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالعُقلاء؛ أنَّ خِلْقَةَ العقلاء أشَدُّ دلالةً على وجود الصّانع ﷻ؛ لأنّ العجائب والغرائب في خلقهم أكثر؛ وهي العقل والنّطق والفهم، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: 21] وذلك على قولٍ في التّفسير[3]، فإذا قيل: إنَّ التّسبيح بالمقال؛ فمنَ المعلوم أنَّ الكافر لا يُسبّح اللّهَ بمقاله؛ يعني: لا يقول سُبحان الله؛ لأنّه يصِفُ الله بالعيب، ويجعلُ مع الله شريكًا؛ لكنّه مُسَبّح لله بحالِه وما جُبِلَ عليه؛ إذِ الوجودُ كلُّه منَ الذّرّة إلى المَجَرة يتحرّكون بأمر الله وسُنَنِه، وهذا التّسبيحُ غيرُ عاقلٍ، وإنّما هو تسبيحٌ خَلْقيٌّ بنظامهم، فالتّسبيحُ يشمل: التّسبيحَ بالقول وبالحال، بالقولِ مِثْل: سبحان الله، وبالحالِ أنّك إذا تأمَّلت خَلْقَه وما جُبِلوا عليه علمتَ بذلك أنّ الله تعالى مُنزَّه عنَ العبث وعنِ النّقائص، فيُسَمّى هذا: التّسبيح بالحال[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5202.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 288، وزاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 6/ 237، والشِّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 628.

(4) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 286.

وبعضُ العلماء يرى أنّ التّسبيح لا يَبْعُد أن يكون باللّسان؛ وذلك بأن يخلق اللّهُ لكلِّ ما في الأرض من حيواناتٍ وطيورٍ ألسنةً تُسَبّح صانعَها بلُغةٍ تعرفُها، أودعَ اللّهُ فيها خصائصها، وإن لم نفهمها نحنُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

دلالةُ الابتداءِ بِذِكْرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ابتدأ النَّظمُ الكريم بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ مِلكَها يَدُلُّ على مِلكِ الأرضِ بطَريقِ الأَولى[1]، وأيضًا: لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِن الأرضِ وأعلَى[2].

بلاغةُ جَمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

بيانُ كونِ السَّماواتِ أجناسًا مُختلفةً والأرضِ جِنسًا واحدًا

النّاظرُ في آيات القرآن الكريم يجد أنّ لفظَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ جاء مُفردًا في جميع مواضعه، سواءٌ كان ذلك مُقترنًا بذِكْر السّماوات كما في هذه الآية: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أو مُفردًا عنها كما في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرّعد: 4]، مع أنّ لفظ (السّماوات) ورد في القرآن بينَ الإفراد والجمع، وتعدَّدت توجيهاتُ العلماء لذلك؛ فمنهم مَن يرى أنّ عِلّة الإفراد للأرض لفظيَّةٌ؛ وهي خِفَّة اللّفظ بالنّطق وجريانُه في الفم بسهولةٍ ويُسْرٍ بخلاف لفظ الجمع (أراض)، و(أرَضون)؛ فهو ثقيلٌ مُستكْرَهٌ على اللّسان والسّمع، ويُؤكّد ذلك أنّ القرآن الكريم لمّا أراد أن يُعَبّر عن الأرض بالجمع عبّر عنها بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12]؛ فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12] ولم يَقُلْ: (سبع أرضين)، ممّا يُؤكّد أنّ القرآن حريصٌ على تجنُّب هذا الجمع لثِقَله، وآثَر عليه المُفرد، أمّا (السَّماواتُ) فجُمعت؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفةٌ، وكلُّ سماء من جنسٍ غيرِ الأُخرى، ووَحَّد (الأرض)؛ لأنَّها كُلُّها تُراب، ولأنَّ الأرض عالمٌ واحدٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/ 156.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 251.

وممّا يُذْكَر أيضًا في جمع (السّماوات) وإفراد (الأرض) أنّ السّماوات أشرفُ منَ الأرض، والجمعُ أبلغُ في التّفخيم منَ الإفراد[1].

سِرُّ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

مكانةُ السَّماواتِ وأهـمّـيَّـتُـهـا وعَظَمتُها

قُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكْرَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذِكْرُ (السماء) عنِ (الأرض) إلّا في أربع آياتٍ لموجبٍ دلاليّ[2]، وقُدِّم ذِكْر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ - أيضًا - من باب تقديم الأعظمِ والأعلَى، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظمِ والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجِبُ خِلافَه، والتَّقديمُ للأَهميّةِ والقَداسة؛ فالسَّماءُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والمَلأ الأعلى، وسوى ذلكَ منَ الغيبيّات.

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾:

التّنصيصُ على عمومِ مَن يسكنُ السّماواتِ والأرضَ وما بينهما

عُطِفَ (الطّير) في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ على قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّنصيص على عموم مَن يسكنُهما، ولإفادة الشّمول للجميع حتّى مَن يكون بينهما؛ فضلاً عن وصف الطّير في هذه الحالة؛ وهي استقرارُها في الفضاء صافّةً أجنحتَها لا تُحرِّكها بتموُّج الهواء من تحتها ليقوى على حَملِها[3].

سِرُّ تخصيصِ الطّيرِ بالذِّكْرِ من بينِ المخلوقاتِ:

مـا يـتـمـيّـزُ بـه الـطَّـيـرُ مـن خاصّيّةِ الوقوفِ في الـجَـوِّ بين السّماءِ والأرضِ

خُصّ الطَّيرُ بالذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ مع اندراجِها في جُملةِ ما في الأرضِ؛ لعدَمِ استقرارِ قَرارِها واستقلالِها بصُنْعٍ بارعٍ وإنشاءٍ رائعٍ؛ قُصِدَ بَيانُ تَسبيحِها من تلك الجهَةِ؛ لوُضوحِ إنبائِها عن كَمالِ قُدرةِ صانعِها، ولُطْفِ تَدبيرِ مُبدعِها،

(1) ومَنْ أراد المزيدَ في علّة الإفراد والجمع، دلالات الإفراد والتّثنية والجمع في القرآن الكريم، ص: 90.
(2) وهذه المواضع هي: آل عمران: 5، ويونس: 61، وإبراهيم: 38، والعنكبوت: 22.
(3) الجبالّي، شفاءُ الصّدور بتفسيرِ سورة النّور، ص: 247.

ولكثرةِ لبثِها في الهواءِ، والطّيرُ في هذه الحالةِ ليس منَ السّماءِ ولا مِنَ الأرضِ؛ ففيها صنعةٌ بديعةٌ يَقْدِر بها تارةً على الطّيران، وتارةً على المَشْي؛ بخلاف غيرها من الحيوانات.

دلالةُ تقييدِ ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ بقولِهِ: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۚ﴾:

لبيانِ استقرارِها في الفضاءِ وهي صافّةٌ أجنحتَها لا تُحَرِّكها

قيَّدَ القرآنُ الكريم ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۚ﴾ في قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۚ﴾؛ لبيان استقرارِها في الفضاءِ وهي صافّةٌ أجنحتَها لا تُحَرّكها، وهذه خاصّيّةٌ أودعها اللّهُ في الطّير لا يملكها البشرُ؛ لأنّ إعطاءَ الأجرامِ الثّقيلةِ ما به تقوَى على الوقوفِ في الجوِّ باسطةً أجنحتَها بما فيها مِنَ القبضِ والبَسْطِ حُجَّةٌ قاطعةٌ على كمالِ قدرةِ الصّانعِ تعالى، ولُطفِ تدبيرِه[1]، فقولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۚ﴾ تخصيصٌ بعدَ التَّعميم، لِما فيها من إعجازٍ من أنّها تطير وتسير في الفضاء من غير أن يكون سيرُها على أجرامٍ جامدةٍ تتحمّل ما يسير عليها؛ بل هي تسير من غير جرْم جامدٍ ثقيل تسير عليه، ولذلك خصَّها بالذِّكر لفضل ما تدلُّ عليه من إبداعٍ في الخَلْق والتّكوين حتّى كانت موضعَ درسٍ للإنسان، فأراد أن يُقلِّدَها وتَمّ له ما أراد؛ فكانتِ الطّائراتُ التي تقطع أجواءَ الفضاء، وسبحان مَن خلق كلَّ شيءٍ من غيرِ مثالٍ سبق[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۚ﴾:

الإشارةُ إلى الحالِ العجيبةِ المهيبةِ للطّيرِ عند تسبيحِها

خَصّ القرآنُ الكريم الطّيرَ بحالةٍ من أغرب أحوالها؛ وهي استقرارُها في الهواءِ مُسَبِّحةً للّه حالَ كونِها صافّاتٍ، وهي في أروع مظاهرِها وأعلى منازِلِها، حيثُ تكون مُحلِّقَة في جَوِّ السَّماءِ صافَّةً أجنحتَها؛ أيْ: باسطتَها في حالٍ منَ الهدوء والسُّكون، كأنَّها

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 110، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 183.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 405، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5202.

تستعرض العالَمَ الأرضيّ، وتبسطُ ظِلّها عليه؛ فهي في عُلوُّها وتربُّعِها على هذا العرش، لم يدخل عليها شيءٌ منَ الكِبْر والغرور، كما يقع ذلك لكثيرٍ منَ النّاس؛ بل إنّها لتزداد بهذا ولاءً وخشوعًا لله؛ فتُقيم صلاتَها لله في جَوّ السّماء صافّةً أجنحتَها مرسِلةً جوارحها في خشوعٍ واستسلامٍ، معتمِدةً على قدرة الله، لا تخشى أن تهوي من حالق، وهذا هو التّوكل في أروع مظاهره[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالجمعِ ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ مع الطّيرِ:

عبّر القرآنُ الكريمُ بلفظِ الجمعِ ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ وصفًا للطّير؛ لأنَّ لفظ ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ يقع على الواحد والجماعة، قال ابن الأنباريّ: "الطّير جماعة، وتأنيثُها أكثر منَ التّذكير"[2].

نُكْتَةُ فصلِ قولِهِ: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾:

فُصِلت جملةُ: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾؛ لأنّها استئنافٌ ثانٍ جيءَ به لبيان مَظْهَرٍ من مظاهر قُدرةِ الله تعالى وحِكمته حيثُ ألهم سُبحانه كلَّ مخلوقٍ من مخلوقاته كيفيَّة التّسبيح لخالقه ﷻ[3]؛ فهو من تمام العِبرة، إذ أودع اللهُ في جميع أولئك ما به مُلازمتُهم لما فُطِروا عليه من تعظيم اللهِ وتنزيهِه[4].

تمامُ العِبرةِ ببيانِ مظاهرِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِهِ في إلهامِ كُلِّ مخلوقٍ كيفيَّة التَّسبيحِ لخالقِهِ

دلالة التعبير بـ ﴿كُلّٞ﴾:

﴿كُلّٞ﴾ في قوله: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ مبتدأٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفعه الضّمّة المُنونة؛ لانقطاعه عنِ الإضافة، والمُضافُ إليه الذي ناب عنه تنوينُ ﴿كُلّٞ﴾ ما يشمل المذكور المُصرّح به، والمُندرجَ تحتَ العموم حتَّى الجماد، فيَشملُ الطّيرَ وغيره منَ المُندرِج في العموم السّابق، وفيه: أنَّ مِمّا اندرج في العمومِ الجمادُ، ولا يُنسب

الدّلالةُ على العمومِ والشُّمولِ

(1) الخطيبُ، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1298.
(2) سليمان الجمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 3/ 231.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 136.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 258.

إليه العِلْمُ، وإنْ كان بمعنى مُطلقِ الإدراك، والتزم أنّ له علمًا وأنّه سبحانه ألهَمَه صلاةً وتسبيحًا لائقَيْن به، ممّا لا يرتضيه كثيرٌ منَ النّاس، فيجوز أن لا يكون هُناك استعارةٌ، والعِلْم على حقيقته، ويُراد به مُطلق الإدراك، ويُراد بما ناب عنه التَّنوين أنواعُ الطَّير أو أفرادُها، وبالصَّلاة والتَّسبيح ما ألهمه الله ﷻ كلَّ واحدٍ منَ الدُّعاء والتَّسبيح المخصوصَيْن به، ولا بُعْدَ في هذا الإلهام؛ فقد ألهم سبحانَه كلَّ نوعٍ من أنواع الحيوانات علومًا دقيقةً لا يكاد يهتدي إليها جهابذةُ العقلاء، وهذا ممّا لا سبيل إلى إنكاره[1].

نُكْتَةُ استعمالِ ﴿قَدْ﴾، ودلالةُ دخولها على الفعل الماضي:

تحقيقُ العِلْمِ الحاصلِ عن علمٍ ورَوِيَّةٍ

دلَّ دخولُ ﴿قَدْ﴾ على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، على تحقيق العِلْم الذي يُظهِر كمالَ عراقة كُلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ منَ الطَّير، وما اندرج في عموم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في التَّنزيه ورسوخ قَدَمِه فيه، بتمثيل حالِه بحال من يعلم ما يصدر عنه منَ الأفاعيل، فيفعلُها عن قصد ونيَّةٍ، لا عنِ اتّفاقٍ بلا رويّةٍ[2].

بلاغةُ عودِ الضَّميرِ المحذوفِ في ﴿عَلِمَ﴾:

تنويعُ المعنى وتكثيرُه بحسبِ العائدِ مِن تلك الضّمائرِ

تعدّدت أقوالُ العلماء في عود الضَّمير المحذوف الذي هو فاعل ﴿عَلِمَ﴾ في قوله: ﴿عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾؛ فمنهم مَنْ قال: يُعود على المُصَلّي والمُسَبِّح؛ أيْ: كُلُّ واحدٍ مِمَّن يُصلّي للّه تعالى، ويُسَبِّح بحمده قد عَلِمَ معنى صلاته ومعنى تسبيحه، فهو لم يعبد الله اتّفاقًا أو بلا رويّةٍ، وإنَّما عَبَدَهُ تعالى عن قصدٍ ونيَّةٍ، ولكن بكيفيَّةٍ نُفوِّض معرفتَها إلى الخالقِ ﷻ وحدَه، ومنهم مَن يرى أنَّ الضَّمير في ﴿عَلِمَ﴾ يعود إلى الله تعالى، فيكون المعنى: كلُّ واحدٍ من هؤلاء المُصلّين والمُسَبِّحين قد عَلِمَ الله تعالى صلاتَهم وتسبيحَهم له علمًا تامًّا شاملًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 380، وبهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 63.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 380.

قال بعضُ العلماء ما ملخَّصُه: واعلم أنَّ الأظهر أن يكون ضميرُ الفاعلِ المحذوف في قوله: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ راجعًا إلى المُصَلّين والمُسَبِّحين؛ أيْ: كلٌّ منَ المُصلّين قد عَلِم صلاةَ نفسِه، وكلٌّ منَ المُسَبّحين قد عَلِم تسبيحَ نفسِه؛ لأنّه على هذا القول يكون قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ من باب التّأسيس، أمّا على القول بأنّ الضّمير يعود إلى الله تعالى؛ أيْ: كلٌّ واحدٍ منهم قد عَلِمَ اللّه صلاتَه وتسبيحَه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ من باب التَّأكيد اللَّفظيِّ، والتَّأسيس للأحكام أولى منَ التَّأكيد لها[1].

نُكْتَةُ انتخابِ الاسميَّةِ في الصَّلاةِ والتَّسبيحِ:

انتخب النَّظمُ الكريمُ الاسميَّةَ في لفظي الصَّلاةِ والتَّسبيحِ في جُملةِ ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾؛ لِبيانِ كمالِ الرُّسوخِ في الأمريْنِ، والثُّبوتِ فيهما[2].

بلاغةُ استعمالِ لَفْظِ (التَّسبيحِ) بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

تسبيحُ العقلاءِ حقيقةٌ، وتسبيحُ الطّيرِ بلسانِ الحالِ

تعدَّدت وجهةُ نظرِ العلماء في حَمل التّسبيح على الحقيقة أو على المجاز؛ نظرًا لجمع الآية بينَ العقلاء وغير العقلاء؛ فذهب بعضُهم إلى أنّ تسبيح العقلاء حقيقةٌ، وتسبيحَ الطَّير - على قول - مَجازٌ مُرسَلٌ في الدّلالة على التَّنزيه، وفيه استعمالُ لفظ التَّسبيح في حقيقته ومجازِه، ولذلك خولف بينهما في الجُملة الثّانية، فعبَّر بالصَّلاة والتَّسبيح مُراعاةً لاختلاف حال الفريقيْن: فريقِ العُقلاء، وفريقِ الطَّير، وإنْ جمعتْهُما كلمةُ ﴿كُلٌّ﴾؛ فأُطْلِقَ على تسبيح العُقلاء اسمُ الصَّلاة؛ لأنَّه تسبيحٌ حقيقيٌّ، فالمُراد بالصَّلاة الدُّعاء، وهو من خصائص العُقلاء، وليس في أحوال الطَّير ما يستقيم إطلاقُ الدُّعاء عليه على وجه المجاز، وأُبقيَ لدلالة أصواتِ الطَّيرِ اسمُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 136.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 380.

التَّسبيح؛ لأنَّه يُطلق مجازًا على الدّلالة بالصَّوت بعلاقة الإطلاق، وذلك على التَّوزيع، ولولا إرادة ذلك لَقيلَ: كُلٌّ قد عَلِمَ تسبيحَه، أو كلٌّ قد علِمَ صلاتَه[1].

ومنهم مَنْ قال: إنّ التّسبيح والصّلاة على الحقيقة؛ فالطَّير تُسبِّح وتُصلّي صلاةً وتسبيحًا يعلمُهما اللّه، ونحن لا نعلمهما كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، ومنَ الآيات الدّالّة على أنّ غير العقلاء منَ المخلوقات لها إدراك يعلمُه اللّه ونحن لا نعلمه قولُه تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 74]، فأثبتَ خشيةً للحجارة، والخشية تكون بإدراكٍ، وقولُه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: 72] الآية، والإباءُ والإشفاقُ إنَّما يكونان بإدراك، والآياتُ والأحاديثُ واردةٌ بذلك، وهو الحَقُّ، وظاهرُ الآيةِ أنَّ للطَّير صلاةً وتسبيحًا، ولا مانع منَ الحملِ على الظّاهر[2]، وهذا ما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو أنَّ اللّه تعالى عَلِمَ في الجماداتِ وسائرِ الحيواناتِ سِوى العُقلاءِ علمًا لا يَقِفُ عليه غيرُه، فلها صلاةٌ وتَسبيحٌ وخَشيةٌ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحجّ: 18] الآيةَ؛ فيَجِبُ على المرءِ الإيمانُ به، ويَكِلُ علمَه إلى اللّه ﷻ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ:

تقريرُ ما سَبَقَ من بيانِ قدرةِ اللّهِ بعلمِهِ بجميعِ خَلْقِهِ

لمّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى قُدرتَه على جميع تلك الشُّؤون، عطف عليه قولَه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: المُحيط علمًا وقُدرةً، ﴿عَلِيمٌۢ﴾ بما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 258.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 287، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 552.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/ 132.

ثبت مِمّا أخبركم به في هذه السّورة من دقائق أقوالكم وأحوالكم، وضمائركم وأفعالكم[1]، ففي الإعلام بسعةِ علمِ اللّه تعالى الشّامل للتّسبيح وغيره منَ الأحوال[2] تذييلٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[3].

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ موضعَ الإضمارِ:

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ إظهارٌ للاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لتربية المهابة، والإشعار بعِلَّة الحُكم؛ إذْ هو وعيدٌ وتَخويفٌ[4].

غرضُ التّعبيرِ بصيغةِ المُبالغةِ (فعيل):

الإشـــارة إلى سعةِ علمِ الله ﷻ المحيطِ بكلِّ شيءٍ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بصفةِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على وزن (فعيل)؛ للمبالغة في وصفِ قُدرةِ اللّه تعالى وعِلْمِه بخَلْقه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾، وللإشارة إلى سعةِ عِلْمِ اللّه ﷻ، المحيطِ بكلِّ شيءٍ، والعالمِ بكلِّ ما يَعلم الخلقُ وما يعملون، وهذا يُؤيِّد معنى أنَّ هذه المخلوقات لها عِلْمُها الذي تعمل به، وأنَّ للّه ﷻ عِلْمُه المحيطُ بعلمِها وعملِها جميعًا[5].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ في قولِهِ: ﴿بِمَا﴾:

إفـادةُ العمومِ والـشُّـمـولِ في تـقـريـرِ الـعِـلْـمِ والجزاءِ

دلّ التّعبيرُ باسمِ الموصولِ (ما) في قولِهِ: ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ على إفادةِ العمومِ؛ لذلك جمعَ النَّظمُ الكريم بين عِلْمه تعالى بأعمال المخلوقات وذلك بتعليمه إيّاها، وبين عِلْمه بأعمالها المُتَضمِّن للجزاء[6]، والموصول (ما) في التّذييل؛ إمّا عبارةٌ عنِ الدّلالة الشّاملة لجميع الموجودات مِنَ العقلاء وغيرهم، والتّعبير عنها بالفعل ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ مُسنَدًا إلى ضمير العُقلاء لما أُشير إليه سابقًا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 259.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 259.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 381.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1298.
(6) عبد الملك قاسم، عقد الجمان، ص: 748.

تغليبٍ للعقلاء، وإمّا عبارةٌ عنها وعنِ التَّسبيح الخاصّ بالطَّير مَعًا، أو عن تسبيح الطَّير فقط، فالفعلُ على حقيقته، وإسناده إلى ضمير العُقلاء لما مَرَّ، فالجملةُ حينَئِذ مقرّرةٌ لتسبيح الطَّير فقط، وعلى الأوَّلَيْن لتسبيح الكُلِّ، وإمّا عبارةٌ عنِ الأعمّ منَ الصَّلاة والتَّسبيح وغيرهما منَ الأفعال الصّادرة عمّن في السَّماوات والأرض والأحوال العارضة له، والاعتراض حينَئِذٍ مُقرِّرٌ لمضمون ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾[1].

سِرُّ التّعبيرِ بضميرِ الجمعِ للعاقلِ في قولِهِ: ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

التّعريضُ بالجُهلاءِ الخارجين عن نظامِ الكونِ المُسَبِّحِ بحمدِ ربِّهِ

المُستفادُ منَ التّعبير بضمير العقلاء في قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ مع ما أُشير إليه سابقًا من تغليب الخِطاب للعُقلاء أنَّ أهلَ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفليّ والطّيورَ لمّا آمنت باللّه الذي هو نور السَّماواتِ والأرض؛ سَمَتْ بفِكْرها وأبانت عن عُلوّ عقلِها موافقةً للفطرة الرّبانيّة فيها، أمّا الذين أعرضوا عنِ الإيمان وعاندوا الحَقَّ والحقيقةَ ولم يؤمنوا باللّه الذي هو نورهُما، ولم يظهر نورُه على عيون رؤوسهم ونفوسهم؛ فهؤلاء هم الذين لا يعقلون؛ لجهلِهم بالحقيقةِ النّورانيّةِ، ولذلك يكون ختامُ الآيةِ من باب التَّعريضِ بأولئك الجُهلاءِ الخارجين عن نظامِ الكونِ المُسبِّحِ بحمدِ ربِّه[2].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ دون (يعلمون) مع دلالةِ الصّيغةِ:

الفعلُ أعمّ منَ العملِ، وتعلّق علمِ اللهِ بالأعمِّ أنسبُ للجمعِ بينَ العقلاءِ وغيرِهم

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل دونَ العمل في قوله: ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ لأنّ الفعل لفظٌ عامٌّ يُطلَق على إحداث الشّيء، سواء كان بقصدٍ أو بغير قصد؛ بخِلاف العمل فهو مبنيٌّ على القَصْدِ والعِلْم، وعلى هذا فالفعلُ أعمُّ منَ العمل؛ فإذا تعلّق عِلْم اللّهِ بالعامّ والأعمّ، فمِنْ باب أَوْلى أن يتعلّق بالخاصّ والأخصّ، ولأنّ الآية جمعت بين العقلاء وغيرهم؛ فكان التّعبير بالفعل هو المناسب لهذا الاقتران.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 381.
(2) عبد الكريم مدرّس، مواهب الرَّحمن، ص: 63.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»